قصة قصيرة

الحواجز

حسين علي حسين

عند جلوسي على مائدة المطعم الزرقاء، المزينة بمفرش مليء بالنقوش، شعرت بارتباك لا حدّ له (هذه اللحظة بالعمر كله!) قلت في نفسي، وأخذت أتفرس في الثريات المعشقة، والقطع الخشبية المثبتة في السقف والجدران المدهونة بمادة تشبه لون البخور القادم توّاً من نيبال: ها هو الشرق يحوطك بعنايته القاتلة مرة أخرى؟ تساؤلي أدخل في نفسي الخوف والقلق، حصار في شتى الأماكن، الصقيع تحول إلى رقعة تنضح بالرطوبة والبخور والأخشاب والثريات الشرقية، ماذا بعد يا سهم الصحارى الموغلة في التيه والغبار والمسافات المتشابكة؟ هل هي المرة الأولى التي ألج فيها إلى مطعم مثل هذا؟ سحقاً لهذا الشعور السخيف بالدونية! ما كان أحد من أجدادي هكذا... كنت أنا نعم.. لكن الآن غير ذلك.. سحقاً لهذا الشعور!

الأضواء لامعة، تكاد تكون باهرة. واريت بصري، فكرت فيمن يقول بأن الأضواء في الأماكن الضخمة، لا بد أن تكون مواربة، وضحكت في داخلي بلا سبب. جوّ شرقي تنقصه بعض الرتوش. العرق أخذ يتصبّب. هل هي رهبة المكان؟ الأجواء المليئة بالهدوء المريب؟ جيش السفرجية الملتفّ حولي من كافة الاتجاهات وكأنني الزبون الوحيد؟ فتاة الاستقبال القصيرة الشقراء، القابعة في الركن ترقب غترتي الحمراء والعقال والثوب الأبيض وفوق ذلك كله البالطو الأسود السميك؟ خلعت ما يمكن خلعه وكوّمته على طاولة الأكل وأخذت أبادل فتاة الاستقبال النظر، أرسلت ابتسامة دون أن تفتح فمها، فزاد ارتباكي وزاد تساقط العرق في داخلي.. (لك الله يا صقر البراري!).

الأضواء حادّة. هم يضعون في ثريّاتهم ما يريدون، ولك أن تجلس أو تخرج، إلى حيث البرد والمطر الأوروبي، وأعمدة الإضاءة السوداء والأجساد الرشيقة الشقراء الملتفّة حولها بشكل مثير. لعنت من زيّن لي الدخول إلى هنا. أوقعني في ورطة ورحل. من قال إنني لا أصلح لهذه الأماكن؟ يزيّن لي الغواية ويتركني لمدينة كل ما فيها مموّه. ماذا أفعل الآن والعرق أخذ في التساقط من تحت فروة الرأس مباشرة؟! ارفعوا هذه النجفة من فوق رأسي، ارفعوا الآلات النحاسية، ارفعوا الملاعق والشوك والرجل التمثال الواقف أمامي بابتسامته المخادعة، ارفعوني من هنا حالاً!!

كلهم يرتدون البدل السوداء المنشّاة، ويخنقون رقابهم بربطات العنق اللامعة.. إلا أنا! مدينة جرداء، صغيرة، رملية اللون، خرجت توا من جوف الصحراء في كفن طائر، وحطت بلا ترتيب في كوبنهاجن؟! من أنا بين هذه الوجوه المخادعة؟ مدينة، صحراء، قرية، حبّة رمل من لحم؟ دم؟ عرق؟ غترة حمراء منقطة وأضواء لامعة، حادّة، وعرق لزج يتساقط كالمطر من الرأس، يعبر الرقبة إلى الصدر والرجلين إلى... ولا أملك إزاء هذا الحصار غير ترديد دعائي العجوز!

حاولت ارتداء البنطلون فلم تستمر المحاولة سوى دقائق. شعرت وكأنني في برميل. كانت النظرات متّجهة نحوي، لكني تعمّدت اللامبالاة منشغلاً بتفقّد أدوات المائدة الزرقاء والشمعة الموقدة الغاطسة وسط كوب أصفر شفاف، في داخلي رثيت لضوء الشمعة المختلج، التائه وسط الأضواء المشعة من كافة الأركان والسقوف. أصرف كثيراً على الكهرباء، لا أنام إلا والنجفة بلمباتها الستّ موقدة، يفعلون الآن مثلي؟ يجيرون قيمة الأضواء على فاتورتي؟ قيل لي إذا أردت المتعة الكاملة ادفع دون أن تنظر الفاتورة، حقق ما تريده بالنقود. ذلك ما قالوه لي، وها أنا أنفذه على مراحل؟ حتى الحمامة الملونة عندما حطت على رأسي في أحد الميادين، تركتها تفعل ذلك دون تردد، وقفت من أجلها في وسط الميدان، ريثما وضعت حصيلتها من المخلفات ثم طارت سعيدة بما خلفته على رأسي، حينذاك ارتخيت على ملابسي بمنديل ورق وأخذت في تنظيف بقايا المخلفات، وتحركت باتجاه الحوانيت العتيقة علّني أجد زيّاً يلائمني!!

أمس كنا في موقع آخر (أنا. ذلك الصديق الذي تركني ورحل. مواطن من هذا البلد الغارق في البرد). ارتخى الأوروبي الودود على صديقي قائلاً:

- آسف لأنني لا أستطيع الحديث مباشرة مع مستر مرزوق، إنه لا يتقن إلا كلمات قليلة، وأنا مشحون بالكلمات!!

قال له صديقي بتهكم واضح:

- لدى مرزوق لغة عالمية... (أرفق ذلك بإشارة إلى يديه).

ضحكت وتكسرت من الداخل. كيف تأمن من الغدر دون لغة؟ ها أنت وحيد والابتسامات تحوطك، من إدراك عن مضمونها؟ لا.. ذاك زمان مضى، هذه المدينة تختلف عن كافة المدن: ودودة مثل نساء الشرق، لكنها باردة، ذلك ما يقضّ مضجعي حقاً!!

اخترت من البوفيه الغريب بعض السلطات انهمكت في ازدادها على مهل. ثم أشعلت بقايا السيجار، أخذت أرقب معاطف الفرو البيضاء والمنقطة وهي تتهادى أمامي، وفكرت في صقيع غرفتي فأصابني الهم!!

لم أجد ما أفعله غير التنغيم في صحن السلطة وغرس النظرات على التوالي: الشمعة المختلجة، معاطف الفرو، الكأس، الأضواء الحادة.. لك الله يا هذا الهجير المثلج!! إنه الاختناق يعود للمرة الألف!

أفكر في الاتجاه حالاً إلى غرفتي لخلع ملابسي، لكنني لا أطيق البدل ولا ربطات العنق، ثم إن هذا الزي جعلني محط الأنظار.. من يكره ذلك؟!

ارتحت للنتيجة فعدت إلى ازدراد ما بقي في صحن السلطة!

رفّت العين عندما دخلت، تابعتها حتى قعدت، فستانها بنفسجي، لونك المفضل يأتي إلى هنا.. أنيس جديد في هذه الوحدة القاسية!!

جلست غير بعيد. مددت نظراتي على استحياء إلى ما تحت، نزلت نظراتي مباشرة على الكعب العالي، ثم صعدت، صعدت، صعدت، واستقرت على وردة بيضاء مثبتة على الجانب الأيسر من شعرها، قلت في نفسي بحسرة (لك الجنة يا مرزوق وهذا الأكل العديم اللون والطعم والرائحة!!) نظرت المليحة بخيلاء مهرة البراري وهي تضع يديها على الطاولة، تيقنت حالاً أن العرق سيسّاقط وستبدو يداي في حالة يرثى لها، ارتخيت في مقعدي وأخذت أحدق ببلادة في إناء الماء الزجاجي، وكلّي يقين بأنني لو قمت لالتهمني طوفان العرق، وربما عادت لي الرعشة القديمة، وهذا ما كنت أتحاشاه طول عمري ولن أسمح مطلقاً بأن أقف موقفاً آخر في هذا البلد الغريب.. اللعنة على كافة الظلال المثيرة... فتاة لا غير تبدّل كياني، تقلبه رأساً في لحظة واحدة.. لماذا خرجت من هناك إذاً؟ إبقَ رهين المحبسين، فهذا أسلم لك من هذه المواقف أو قم حالاً وقبّل صاحبة لونك المفضل، فمن أدراك؟ ربما أراحها ذلك وجعلها تقبل على المائدة بنفس مفتوحة، ربما ذهبت الرعشة عنك نهائياً؟ لكنك آليت على نفسك أن لا تكون رجل المبادرات.. هل قرأت حديث المبادرة؟!

لم أسأله عندما ارتخى عليّ بطبقه الفضيّ المليء بالأجساد الصغيرة المسلوخة المقلية المضمخة بالزيت والفلفل الأسود. خمنت أنها عصافير مقلية. أشرت له بأن يلقي منها في الصحن على راحته. شرع في إلقاء مجموعة منها بملقاط أبيض. بدأت أعمل الشوكة والسكين فيها: واحدة، واحدة، ثم بدأت الالتهام على مضض. كان طعمها مقززاً، بالكاد

التهمت قطعة واحدة ثم أبعدت الطبق وأخذت أشرب من كأس العصير، وكأنني أشرب هموم الشرق كلها!!

مسحت فمي ونهضت. كانت المليحة قد بدأت في التهام طعامها بتلذّذ، وكانت ما تزال مستمرة في النظر إلى طاولتي. ضائعة تبحث عن رفيق. وضائع يبحث عن دفء في ديار التيه والثلج والخطوات العجولة.. لكن من يقوم بالترجمة؟ ضحكت للسؤال... حزنت للحواجز.. الحواجز.. الحواجز..!!

التهمني الشارع الخالي بعواصفه الباردة. رفعت ياقة الثوب، تلطمت بالغترة الحمراء ومشيت، راقبت فوانيس الشوارع الخافتة والقابعات تحتها، وأخذت أمصمص شفتيّ وأزدرد ريقي على مهل حتى وصلت فندقي، انفتح الباب الأتوماتيكي فكدت أسقط أمام اللوبي المواجه، كان هناك الدفء ومياه النافورة الملونة والشموع الصغيرة الغاطسة رغماً عنها في الآنية الزجاجية الشفافة!

ما أتعس هذه الوحدة! لماذا بقيت وحيداً هنا؟ طرحت السؤال وأخذت مفتاح غرفتي وصعدت، فتحت الباب، كانت في مواجهتي شمعة مختلجة، أخذتها في صدري ونمت باستغراق.. في الصباح عاودني الشوق إلى الكفن الطائر!

المدينة المنورة

دار الآداب تقدم

مجموعات شعرية

- كتاب الحصار — أدونيس
- بدر شاكر السياب — اختارها وقدم لها أدونيس
  مختارات من شعره
- علي محمود طه — اختارها وقدم لها صلاح عبد الصبور
  مختارات من شعره
- ابراهيم ناجي — اختارها وقدم لها أحمد عبد المعطي حجازي
  مختارات من شعره
- الوجود الدمية — قدم لها وترجمها أدونيس
- أوراق الجسد العائد من الموت — عبد العزيز المقالح
- فاحشة الحلم — حسن اللوزي
- الشوكة البنفسجية — محمد علي شمس الدين
- أناديك يا ملكي وحبيبي — محمد علي شمس الدين
- طيور إلى الشمس المرة — محمد علي شمس الدين
- عناوين سريعة لوطن مقتول — شوقي بزيع
- الرحيل إلى شمس يثرب — شوقي بزيع
- أغنيات حب على نهر الليطاني — شوقي بزيع
- اقصر عن حبك — جودت فخر الدين
- أوهام ريفية — جودت فخر الدين
- للرؤية وقت — جودت فخر الدين

منشورات دار الآداب ـ بيروت ـ لبنان
ص. ب ٤١٢٣ ـ ١١ تلفون: ٨٠٣٧٧٨